مع يوسف سلامة في سورية وفلسطين

ماجد كيالي[1]

تعرفت إلى يوسف سلامة في مخيم اليرموك، هكذا فجأة ومن دون أي مقدمات، فهو من هؤلاء الأشخاص الذين ما إن تلتقيهم في حياتك لأول مرة، حتى تشعر أنك تعرفهم بل يغمرك الشعور بأن ثمة معرفة متبادلة ووثيقة منذ زمن طويل، إذ يحصل هذا التواصل المتبادل كانجذاب مغناطيسي، أو كما يقال ككيمياء مشتركة.

هكذا، فمع شخص كيوسف سلامة تحسّ بنوع من الثقة والاطمئنان في هذه العلاقة، يعزز منها تواضعه الجمّ، وصراحته الجريئة، وروح المرح التي يضفيها على أصعب المسائل، مع تطعيم ذلك كله بثقافة عميقة، مطعمة بنكهة فلسفية، إذ تشعر معه أيضًا أنك مع إنسان في ذاته، ولذاته، كشخص سكنه فيلسوف، وأستاذ جامعي، ورجل مهموم بفلسطين، وبسورية، الشعب، وبقضايا الحرية والعدالة والكرامة للبشر، وذلك كله في وقت واحد.

قصة يوسف سلامة العادي، أو المتصالح مع الواقع والعالم، هي قصة إنسان غير عادي، إنسان صلب ودؤوب وودود ومكافح، إذ ولد في العام 1946 أي قبل نكبة فلسطين بعامين (1948)، وعاش طفولته مع وعيه بضياع قدرته على البصر تقريبًا منذ السنين الأولى من حياته، على ما في ذلك كله من معاناة وشعور بظلم الأقدار، كأنه كابد نكبتين؛ واحدة خاصة، وواحدة عامة وخاصة في الوقت ذاته، لكنه على الرغم من ذلك صمد، واجتهد، وكافح للتغلب على كل ذلك، صانعًا قدره وبصمته وهويته بنفسه، وبعناده، وبسخريته المريرة، وبروح المقاومة في قلبه، وبعقله النيّر، وهذا ما جعله على النحو الذي عرفناه به، إنسانًا تحدى المستحيل، وواحدًا -مع تواضعه- من أهم أساتذة الفلسفة في سورية، والعالم العربي، وصاحب رأي وموقف ضد الاستبداد دفاعًا عن حرية الإنسان وكرامته، وطبعًا صديقًا نفتخر به، ونتحمس للقائه، وتبادل الحديث معه، والاستمتاع بسخريته من هذه الدنيا وبلاويها، بصراعاتها ومفارقاتها وهشاشتها.

كثر يعرفون أن يوسف كان لديه نهم غير عادي للقراءة، ثم بات يطالع الكتب من خلال تطبيق خاص عبر الكمبيوتر، سهلت ذلك الثورة الرقمية والفضاء الإنترنتي، لكنه في السابق كان يقرأ من عيون آخرين وأصواتهم، في بداياته من خلال أفراد من عائلته وزملائه في المدرسة، وبعدها تابع ذلك عبر زوجته وفاء التي أمنت له كل ما يناسب وضعه، إضافة إلى تطوع عدد من طلابه وأصدقائه يوميًا، ثم من خلال أبنائه رنيم وسليم وقاسم، وكان في كل ذلك لا يحتاج إلى قراءة ثانية للكتاب الذي يطلع عليه، بمعنى أنه كان يهضم الكتاب، ويناقش فيه في تفاصيله بل ينقده، كأنه كان يحس كل كلمة وكل حرف فيه.

لعل أكثر مرحلة تعرفت فيها إلى يوسف، أو خبرته بتفاصيله كلها عن قرب، كانت حين رتبنا لرحلة مشتركة إلى البلاد؛ إلى حيفا ويافا وعكا واللد ورام الله والجولان، وكان أساسها دعوة لنا من وزارة الثقافة الفلسطينية للمشاركة في فعاليات معرض الكتاب وندواته في رام الله (أيار/ مايو 2018) التي كان فيها أيضًا صديقنا المشترك أحمد برقاوي الذي التقيناه فقط في محطتنا في رام الله.

المهم، كان الترتيب بيننا أنا الآتي من إسطنبول، وهو الآتي من هامبورغ، في مطار اللد، هو بجواز سفره السويدي، وأنا بجواز سفري الأميركي، وكان في انتظارنا آنذاك أسعد غانم (أستاذ العلوم السياسية في جامعة حيفا) الذي أخذنا مباشرة من المطار إلى مطعم على شاطئ يافا للراحة وتناول الغداء، كانت تلك اللحظة كأنها لحظة العمر بالنسبة إلى يوسف؛ إذ بالنسبة إلي كانت تلك الرحلة الثالثة من نوعها إلى بلدي فلسطين.

في تلك الأثناء كان يوسف يتطلع حوله منذ خرجنا من المطار، لا يريد أن يفوته أي تفصيل، وكنت أحس بأنه يأخذ نفسه بملء رئتيه، إذ إنه بات في المكان الذي رأى فيه السماء أول مرة، ولا يريد أن يضيع أي نفس من الهواء، كان مملوءًا بالفرح وبالمرح، وكان غاية في البهجة، ولم يتوقف

(1) كاتب وسياسي فلسطيني سوري.

عن الكلام، كأنه يقلب سني عمره التي عاشها خارج البلاد أو يعصرها في هذه اللحظات، مع ذلك كله كان ثمة شيء من الحزن على محياه بين وقت وآخر، فهذه حال الفلسطيني، فكيف إذا كان ذلك الفلسطيني هو يوسف سلامة.

خلال وجودنا لأسبوعين تعرف يوسف إلى عشرات الأصدقاء في المدن الفلسطينية التي ذهبنا إليها، وفي مدينة مجدل شمس في الجولان السوري، وشاركنا في ندوات عدة في حيفا ورام الله وفي مجدل شمس، وكان في اللقاءات كلها يحاول طرح الأسئلة الصعبة، ويحاول استدراج الحاضرين إلى الكلام ومزيد من الكلام، كأنه يريد أن يتعرف إلى البلاد من خلال أهل البلاد، وفي الأحوال كلها فقد كان موضع اهتمام كل من عرفه، وكل من سمعه.

اللافت أنني لم ألحظ، ونحن معا ليلًا ونهارًا، ولم يلحظ أحد، في هذين الأسبوعين (مايو 2018)، أن يوسف يكاد لا يرى، إذ كان يعتمد في كل شيء على نفسه؛ في لباسه ومأكله ومشيه، وفي جلساته، إذ لم يكن يظهر من كلامه أنه أخطأ بمعرفة شخص ما، أو بتوصيف مشهد ما، ولم يبد من حركاته أن ثمة مشكلة في سيره، أو في جلسته في مكان ما... إذ كان يظهر كأنه اعتاد المشي في هذا الشارع، أو الجلوس في هذا المكان، أو لقاء هذا الشخص أو ذاك. وفي مرة عندما كنت أقص ذلك كله، أي رحلتي مع يوسف إلى فلسطين، على الأصدقاء، ذكرتني صديقتنا المشتركة العزيزة سميرة المسالمة بأن يوسف كان دائمًا يكرر كلمتي: ((أنا شايف))، عند طرح أي مسألة، أو عند مناقشة أي موضوع، كأنه كان يرى فعلًا، إذ يرى الأشخاص من خلال أصواتهم، ويشعر بأنفاسهم، ويحسّ بهم من حركاتهم، ويحول ذلك كله إلى صور، كأن بصيرته عوضته بل كأنها كانت أقوى من أبصار آخرين.

من نوادر رحلتنا إلى فلسطين، كنا مرة عند مطعم (فتوش) الشهير، وهو في مدينة حيفا، عند سفح جبل الكرمل من جهة حديقة البهائيين، وقد اعتدنا على لقاء الأصدقاء في هذا المكان الجميل، ولا سيما أن المكان ليس مطعمًا فحسب، إذ إنه بمنزلة ملتقى لفعاليات فلسطينيي 48. بينما كنا نتمشى على الرصيف، وإذ بمجموعة من المجندات والمجندين الإسرائيليين يمشون على الرصيف بجوارنا، وطبعًا هذا أمر عادي في دولة للجيش منزلة مركزية فيها. لذا أردت مداعبة يوسف، كي أرى رد فعله، توقفت فجأة، ونظرت إليه قائلًا، بنوع من (العتب): ((ولو يا دكتور ليش هيك؟ معقول العدو الإسرائيلي يمر من جنبك، ولم تفعل شيئًا؟ هل هذا معقول؟))، فإذا به يتطلع إلي، وهو يضحك، ويقول: ((شو قالوا لك إني انا أرتين؟)). وفعلًا كانت إجابة في محلها أخذتني إلى الضحك معه. ومعلوم أن أرتين بطل نكتة دارجة في سورية، فهو مجند أرمني في الجيش السوري، أراد مرة الضابط اختبار وطنيته وبسالته في الدفاع عن الوطن، فأخذ يسأله السؤال تلو السؤال عن رد فعله في حال واجه جنديًا إسرائيليًا، وفي مرة ثانية اثنين، ومرة أخرى عشرة، ثم في حال واجه دبابة أو عشر دبابات، والمسكين كان يجيب مرة أنه سيقاتل بحربة، ومرة سيطلق الرصاص من بندقيته، وسيواجه الدبابة بأر بي جي، لكن عند عشر دبابات كان (أرتين) قد أعيته الحيلة، فقال للضابط: ((أي يا سيدي هو الجيش العربي السوري ما فيه إلا أرتين؟)).

في تلك الزيارة، وفي طريقنا من حيفا إلى رام الله، عن طريق القدس، أخذنا أسعد غانم إلى بيت سريّ نسيبة (في القدس الشرقية)، وكان أستاذًا ورئيس قسم الفلسفة في جامعة بير زيت، ومدير جامعة القدس المفتوحة (سابقًا)، كي نلتقي بسريّ وبسعيد زيداني (أستاذ الفلسفة في جامعة بير زيت وجامعة القدس المفتوحة (سابقًا) الذي صحبنا بدوره أنا ويوسف في سيارته إلى رام الله. المهم أنه تصادف في هذا اللقاء ثلاثة من أهم أساتذة الفلسفة الفلسطينيين (يوسف وسريّ وسعيد)، وفعلًا كانت تلك بمنزلة جلسة عصف فكري، ليس للشأن الفلسطيني فحسب، وإنما في مسائل الفلسفة، وبقدر ما كانت حامية وعميقة، كانت ممتعة أيضًا. وقد نتج من تلك الجلسة مناقشة فكرة عنوانها قضية فلسطين من ناحية فلسفية، وهي العملية التي تمت ضمن (ملتقى فلسطين) آنذاك بإعداد الصديق عبده الأسدي، وما زال النص موجودًا في موقع (ملتقى فلسطين) في شبكة الإنترنت[2].

في سيرته السياسة، لم ينتم يوسف إلى أي تشكيل سياسي فلسطين، إذ إنه نأى عنها كلها، على الرغم من بعض

(2) "حوار مع وسف سلامة حول قضية فلسطين فلسفيًا" https://bit.ly/3wVrhN7

صداقات ربطته ببعض القياديين الفلسطينيين الذين ظلوا يكنون الاحترام له، إذ ظل ينظر إلى الكيانات السياسية الفلسطينية السائدة بوصفها كيانات قاصرة، وغير مقنعة، ولا تلبي حاجة الشعب الفلسطيني لحركة وطنية فاعلة ومؤثرة. بيد أن يوسف كان إنسانًا سياسيًا بامتياز مع روح فلسفية، فهو صاحب موقف، يعضد منه موقفه الفلسفي من ماهية الإنسان في تحقيق ذاته بالحرية، وبوعيه بها، لذلك شارك بحماس في بعض فاعليات المعارضة السورية التي لم ترق للنظام قبل اندلاع الثورة السورية التي ما إن اندلعت حتى رأى نفسه مدافعًا عنها، أي عن حق السوريين في الحرية والعدالة والكرامة والمواطنة.

وفي هذه المرحلة بدأت رحلته مع مركز حرمون للدراسات رئيسًا لتحرير مجلة (قلمون)، ومشاركًا في الفاعليات الفكرية للثورة السورية، ومبادرًا لفكرة الجامعة السورية، أو الوطنية السورية، ولعل المجلة كانت أهم بصمة له في هذا المجال، إذ منحها كل وقته وجهده وثقافته، بحيث باتت مرجعًا فكريًا مهمًا للشؤون السورية.

ويفيد أن أذكر هنا أن يوسف عند تشكيل (ملتقى فلسطين)، ملتقى يضم أكاديميين ومثقفين مستقلين من خارج الفصائل ومن مختلف أماكن وجود الشعب الفلسطيني (48 والضفة والقطاع، وبلدان اللجوء والشتات)، كان من المتحمسين لتلك الفكرة، وكان في المجموعة الأولى في عضوية الملتقى.

وربما يهمني هنا أن أعبر عن امتناني ليوسف صديقًا، إذ كان يعبر عن اهتمامه وثقته بما أكتب، وبخاصة لمشاركته في ندوة خاصة نظمها (ملتقى فلسطين) كانت خصصت لمناقشة كتابي ((نقاش السلاح...مراجعة نقدية للتجربة العسكرية الفلسطينية)) لدى صدوره عن (المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت . عمان، ومكتبة (كل شيء) في حيفا، 2020)، وذلك إلى جانب العزيزين رائف زريق وإبراهيم فريحات (بإدارة خالد الحروب)، وكانت مساهمته لماحة وغنية ومفيدة في تلك الندوة[3].

رحل عنا يوسف الذي لا ينسى، كان إنسانًا حقيقيًا ودودًا، ووفيًا، ومقبلًا على الحياة، وساخرًا منها على الرغم من الآلام الكثيرة المتوالية، والآمال الساكنة فينا، فلسطينيين وسوريين، نحاول في كل منها بعضًا من حياة، وبعضًا من أمل، إذ أخذه منا -على حين غرة- القهر والألم والمرض، في حياة ننتقل فيها من نكبة إلى نكبة، أو نكبات، وفي ذلك خسرت، وخسر أصدقاؤه ومعارفه، فخساراتنا كبيرة في هذا الزمان.

رحل صاحب فلسفة الحياة والحرية والمقاومة التي درّسها لأجيال من الطلبة في جامعة دمشق بسيرته الممتدة بين فلسطين وسورية والسويد، لكنه سيبقى في ذاكرة رفاقه وطلابه ومعارفه.

خالص المواساة لزوجته العزيزة وفاء، ولأولاده رنيم وسليم وقاسم ولكل رفاقه وأصدقائه.

(3) "مساهمة يوسف سلامة في ندوة ملتقى فلسطين حول كتاب (نقاش السلاح)" https://bit.ly/3ICFpxD